

مَصْنُوعُ خَوْلَرْكُو فِي الْفَيْدِيسِ الْفَاسِقِ

بِقَلَمِ إِيْزِيدُورْ كُولِيَانُوفِ
لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ لَطْفِي جَمْعُهُ

ديزفيدانيا ، وأقفر ناحياتها ،
وأبعدها عن الحضارة والغنى ،
واسم نواركوتو ، يظهر بمظهر
الرهبان ويتشع بمسوح الصالحين
الزاهدين ، فيقبض بيده اليمنى على
عكاز متين ، ويسراه على قلب
كلارپوتانا زوجة فيدور الثالث
وشريكته في الملك وقسيمته على
العرش والصولجان ، فيمد نفوذه
من قلب الأميرة التوجة كلارپوتانا
إلى البلاط الملكي فيصير له الأمر
والنهي والقبض والبسط ، ويده
الحركة والسكون وبين أنامله الحل
والعقد ، وتخضع له ديزافيدانيا من
أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته
قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك
ديزافيدانيا وصاحبها وسيدها .
ويذيع في الدولة خبر الراهب ،
ويتنشر مع اسمه في المدن والقرى
والدساكر والحقول والمصانع ،
أن في بلاط المالك زاهداً مقدساً
وراهباً ورعاً ، ونقيّاً تقيّاً ، يأتي
بالكرامات وتم على يديه خوارق
العادات ، وأنه مقبول الإرادة
عنده نافذ المشيئة بأذنه ، وأنه
مستجاب الدعوات ، فلا يطلب
شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

تعريف بالقصة

إيزيدور كوليانوف مؤلف روسي
مقيم في أمريكا ، وقد تنقل بين الولايات
المتحدة والمكسيك وجواتيمالا .
وقيل إنه نقل هذه القصة القصيرة
العجيبة عن أسطورة مكسيكية قديمة
حدثت حوادثها في القرن السادس عشر
وكان رايدر هاجارد القصاص الإنجليزي
الشمير قد وصف « قلب الدنيا »
وعاصمة النحاس ومدينة الكنوز
وهي مدن متفرقة عن أساطير
أسبانية وأمريكية .
أما هذه القصة فأهم ما تدور عليه
حوادثها الأخلاق والسياسة وعواقب
الاستبداد ، واستعباد النساء
للشبهوات . وقد أفرغ الحوادث في
قالب جذاب فائق . أما العقدة وهي
الزامة التي قضى بها على الراهب
العاشق فمن أعجب ما تخيله فكر
قصاص خصب ، وقد تضرعت القصة
بخریطة تبين معالم المدن وأهم ما فيها
ولم تر فائدة مباشرة في نشرها ،
فكنيتي بذكر ما ورد فيها من الأسماء
تفادياً من رسمها رسماً قد لا يفتنه إلا
خبير جغرافي . ديزفيدانيا : اسم الملكة
وهي واقعة بين توكسانيا وديفيدانيا
جولد نفاكوس عاصمتها على نهر
شامطور وهي مدينة كبرى .
ملوكين : جبل عال في شمال الممالك
الثلاث ولا يحول بينها . تسار كوسيلو
فلاخش : مقاطعة الراهب التي ولد
فيها وعاد إليها . هاشفات : قرية هي
عاصمة المقاطعة وهي التي استقل بها .
شامطور : نهر كبير يخترق المملكة
ويمر بالعاصمة والقرية . توكسانيا
ودريفدانيا : جارتان معاديتان لـ ديزفيدانيا

منذ الشهر العاشر من عام
١٥٧٥ تربع فيدور الثالث على
عرش جولد نفاجوس عاصمة
ديزفيدانيا ، في قصر منيف
واسع الأرجاء ، تحيط به أبراج
وحصون عالية القدرى ، وتلتف
حولها بساتين ناضرة وحدائق
غناء ، ورياض خضراء ، وغابات
ملتفة الأشجار شاهقة الأغصان
كانها قطعة من جنات عدن .
وكان البلاط الملكي في أقصى
درجات الرفاهية ، تحف به مظاهر
الهيبة وتتمشى فيه تقاليد موروثة
منذ مئات السنين ، وتخضع
لنفوذه ألوف الرجال وتخضع أمامه
مئات الرؤوس من القواد والساسة
والملء والدهاة والوزراء
والترلفين . وإذا بفدم جاهل من
طبقة الفلاحين السذج البسطاء
خارج من أعماق « تسار كوسيلو
فلاخش » إحدى مقاطعات

إلى التجسس على العدو الداخلي . فأخذوا يروون
عن الراهب الرهيب أخباراً يحمر لها الوجه خجلاً
ويقطر المرق من جبين راويها وسامعها حياء ،
لا ينجو من ذلك التلباء والأشراف وزوجاتهم ولا
رجال الدين وسدنة المعابد في ديزفيدانيا طولا وعرضا
وشمالا وجنوبا . فنسج دعاة السوء وذوو الألسنة
اللاذعة خيوطاً من الأوهام والأخيلة والقصص
وزعموا أنه على الرغم من تقواه الظاهرة، قد غرس
بذور الاباحية في مزرعة الأخلاق الطاهرة وأخذ من
مظاهر الدين وسيلة للتمرد على الفضيلة ، وأنه سخر
من بساطة أهل الاستقامة ورمم بالحماقة والبله .
فلم يقف في طريقه حاجب، ولم يحل دون أندفاعه في
رغباته وتيار أهوائه حائل . بل إنه لا يسمى ذلك
عبثاً ولا لعباً بالفضيلة ولا تمدياً على الأعراض ، إنما
هي الطبيعة التي يخضع لها ويلبى نداءها ويصنئ إلى
صوتها ويطيع أمرها في كل وقت من أوقات
النهار أو الليل . فهو لا يقترب جرماً متمعداً ، ولا
يخالف مكارم الأخلاق قاصداً ، ولكنه يسمع النداء
من قريب ومن بعيد . فالديه أكثر اثامفة المندراء ،
ولا لكرامة الزوج ، ولا لرابطة النسب . حقه وهو
« الرجل » مقدم على حق الزوج إذا أراد هو
ووافقته الزوجة . الشرائع والقوانين والعقود . .
وسائل مادية بمثابة الأوراق التي تعلق في أعناق
السلع لتدل على أثمانها أو البطاقات التي تتدل على
جوانب الحقائق تنسبها إلى ذويها . ولكنها لا تمنع
الرجل الماهر أن يحمل الحفية ويولي بها الأدبار

تنال أحداً من أهل النفوذ إلا وهو صريدها ومتمنيها
وسائل الله والمالك فيها . وما من نفعة تصيب أحداً
منهم إلا وجب لها يده . . . وأنه من أجل هذه القوة
الغامضة الخارقة قد أصبح الشيخ نواركوتو الحاكم
بأمره في القصر وعلى قوائم العرش وفي ديوان الملك
ثم في أعناق الرعية . هو الذي يشقى المرضى بغير طب
ولا دواء ، ويعالج الجراح دون مشرط أو سلاح ،
وينقذ من الموت من شاربوا عليه ومدوا يدهم
لمصافحة الأبدية ، فكأنهم عند سماع صوته ومقابلة
نظرة قد بمشوا من مراقدهم . بل هو يحيي الموتى
ويعيد إليهم وجودهم ، وأنه على كل شيء قدير ،
وهو الذي ينقذ ويفقر ويميد المغضوب عليهم إلى
حظيرة الرضى الملكي — سواء أرضى الملك أم لم
يرض — وينقل المرضى عنهم والمقربين إلى مضيق
السخط والغضب ، سواء أغضب الملك أم لم يغضب .
ليس الملك فيدور والملكة كلابوتانا والوزراء والقواد
سوى أدوات صماء في أيدي الراهب الزاهد والسكاهن
القانع نواركوتو الذي كان يعيش عبثة التفتش في
بيت وضيق في أحد أحياء المدينة الآهلة بالفقراء .
ولما كان أهل ديزفيدانيا محبين للاطلاع وقد أتعنوا
صناعة التجسس لأن جيرانهم الدرافيدين شرقاً
والتكسومانيين غرباً يطعمون في بلادهم ، فقد
حذقوا النفاق الأخبار والتقاطها من أفواه المتكلمين
للقوقوف على الحفيقة التي قد تفيدهم في الدفاع عن
أوطانهم ، فقد سرت تلك السليقة من الحياة العامة
إلى الحياة الخاصة ، ومن التجسس على العدو الخارجي

ليستمتع بما فيها من أدوات الزينة ... وهكذا النساء
الأبكار والثيبات والتزوجات والمشوقات، كلهن في
نظره ملك يمينه ورافعات في هيكل ملذاته الذي
لا تغلق أبوابه . لقد كانت تلك المواهب والذائل
واضحة في ذهنه ، وكان واعياً لكل ما يصدر عنه من
أقوال وأفعال . ولكن العامة ظنوه غامضاً . . . وأين
الغموض أيها الحق ؟ إنه رجل متعبد ، قوي الإرادة
قوة نادرة ، سوبرمان إذا شئتم ؛ أتقن حكمة الدين
وحكمة القلم وحكمة اللسان ، يصلي ويسحر ويريد
وينال ما يريد غير مدافع ولا منازع ولا مقارع .
أنتم تسمون بعض ذلك رذيلة وهو يسميه إشباعاً
واستمتاعاً . ترون فيه الشر والجانب الأسود ، وهو
يرى فيه الخير والجانب الوردى . الله المحبة . والمحبة
كل شيء ولا حدود لها . وهؤلاء المريدون من
ساسة وقواد وأسماء وكواعب فاضحات وفتيات
مخدوعات وظباء غريبة

في سفح جبل طوكسين فيلار ، وعلى ضفاف
نهر شانطور يرى السائح في مقاطعة تسار كوسيلو
فلاخش قرية هاشقات بيدول ، وهي مربوط أفراس
ومستودع مركبات حوافل وملتقى قوافل ، وموطن
نكفات للجنود والجحافل ، ومركز دائرة الطرق
والسبل من العاصمة إلى الداخل ، ومحط رجال التجار
والمهاجرين والمسافرين من أهل التقوى وأهل
الفجور . وقد نشأ نوار كوتو في أحد بيوت تلك
القرية المطلة على الحقول والمحكمة بالرائحين والغادين .

فلما شب الفتى وترعرع ، هوت نفسه إلى السموذة
والدروشة الكاذبة وهو يظن أنه مجذوب إلى لباب
الدين ، فأخذ يغمى المعبد ، ويطيل الصلاة في المحراب
ويتحدث إلى كل من بدا له في ثوب الصلاح ليفيد
منه علماً . فكان الوردون يذكرون المعجزات
وخوارق المعاديات وحياة الجن وتأثيرها في الانسان
وقوة الخير والشر وسيادتهما في كل زمان ومكان ،
فجذبه هذا الخفاء في حياة البشر واستدرجه السر
والسحر ، وتغلب على خلقه الميل إلى التحكم في حياة
الناس بتأثير العقل فيمن لا عقل لهم

وكان أهل ديزقيدانيا قاطبة من الجهلاء
والفلاحين المشغولين بالزرع والقوت والتناسل ،
فكان لقوة الخيال ونفوذ الأوهام فيهم السكان الأول ،
وكانوا مظلومين ومرهقين ... كان فيدور الثالث
ملكاً على جانب عظيم من البلاهة ، كانت وراثته
ملوثة بالأمراض التي تصيب الجسم والعقل . وكانت
ملكته وعقيلته كلاريوتانا متحكمة فيه لانهدارها
من سلالة ملكية أرق من سلالاته وأسمى . وكانت
ذات جمال رائع وشخصية شبة وإرادة ملتزمة
وشهوة ملتزمة . فوضعت في عنق زوجها أغلالاً .
فما كان ظلم الرعية بهما أو يهيم بهما ، وهذه الرعية
الجاهلة الفقيرة بجهلها أكثر من فقرها لجذب
أرضها . إن جذب العقول أقرب إلى الفاقة من
إجذاب الأرض وعقمها

فما كانت كلاريوتانا تبالي بأظم الشعب أم لم يظلم ؛
وقد اخترع الكهنة للرعية فكرة الملكوت الأعلى

حتى إن من لم ينل نصيبه في هذه الكرة الأرضية ،
 لن يفوته نصيبه في كرة أخرى ، ولكنها علوية .
 فكانت الرعية أقرب إلى التصديق والاعتقاد
 والايان بالأوهام . هذه المعابد قد انقلبت مسارح
 ومراقص ، وتلك الهياكل صارت أما كن للتعذيب
 والتنكيل ، فان الكهنة قد فرضوا على الشعب
 فريضة الابداء والجلد والجوع وتعذيب الأبدان
 لراحة الأرواح وتنقية النفوس وتطهير القلوب .
 صريح من الوثنية الهندية واليبوريتانية الأيقوسية
 والكوبيكرزم . لقد سرت الشهوات في الأبدان
 وسارت سيرا عكسياً . كانت الدواعي تجلد الشيوخ
 في المخادع ليحرر كن من همهم الفاترة ؛ وكان الكهنة
 يجلدون المذارى والسكواب ليظهروا من قلوبهم
 ويففروا من ذنوبهم . ومن هذا الجلد والتعذيب
 وشحن السياط ، إلى مذهب إشباع الحواس بملء
 أن الله خلقها وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ،
 خطوة واحدة ! فلم يكن الشيخ الفاجر نواركوتو
 واضح هذا المذهب أو الداعي إليه ، إنما كان أحد أتباعه
 فسار في أثر تياره وقلد أشياعه ومريدبه . وكان فقهاء
 هذا المذهب يلتمسون التعليل والتحليل ، ويبحثون عن
 التزكية بطريق التضاليل ... ولكن نواركوتو قد
 وضع المذهب موضع التنفيذ ، فان الله في زعمه لم
 يخلق لنا أعيناً إلا لترى بها ما يمتعها ويمتعنا ، فلا
 نجعلها تقع إلا على ما يسرنا ، وعلماً نشوة وفرحاً ،
 وجعل لنا آذاناً لنسمع بها أحلى الأصوات وأجل
 الأنغام ، فوجب علينا أن نفر بها حتماً من أنكر
 الأصوات وأرذلها ، وأبعدها عن الانسجام

والهارمونية .. وما دمنافى هذه الحياة الدنيا فلنستمع
 بمحاسنها ، بأبصارنا وأسماعنا وبقية جوارحنا ؛
 والذنب كل الذنب في حرمانها ، والأجر كل الأجر
 في تمكينها . أما تعذيب البدن فهو وسيلة التطهر
 الذي لا يكون إلا لمن يشعر بأنه مذنب . أما الطاهر
 فلا يتنجس مطلقاً . وها هو الزاهد نواركوتو قد
 صار إمام المذهب وشيخ الطريقة ونجحت قدرة الخالق
 عليه فبدت له تصاوير في الأفق في وحدة الليل ،
 وفي وضوح النهار ... هذه تماثيل القديسين وأعين
 القديسات ترمقه وهن بضربن الورد بالعناب ، وعطرن
 اللؤلؤ من النرجس ، وأصوات الملائكة تدعوه إلى
 الحضرة الملكوتية : وهذا هو الوحي بعينه وقوة
 الخيال وخصوصية الإدراك الباطن ، وها هو ذا بصير ولياً
 يد الله تدعوه ، وصوت الملائكة يحدوه ، ونور
 البصيرة يقوده ، وعناية الأرواح المليأ ترشده وتكأؤه .
 فما عليه إلا أن يلبي النداء ليرقى أسباب السماء ،
 وها هي ذى الأصوات تهمس في أذنه وتأمره بالسياحة
 الكبرى التي لا وصول بغيرها . فليحمل المخلاة
 والكشكول ، وليتشح الرقعة ذات الديول ، وليتأبط
 وعاء القناعة الحافل بألوان الطعام من المائدة
 السماوية ، وليقبض على المكاز الذي ينبت في يده أفنانا
 وأغصانا ، ويورق روحاً وريحاناً ، فلا يقيظ الصبغ ،
 ولا قر الشتاء ، ولا وحوش الغاب ، ولا أفاعي الغبراء ،
 ولا الذئاب الجائعة ، ولا الثعابين اللاسعة ، لتخيفه
 بأنبيائها ومحموسها وإن يكن فراشه الغبراء وغطاؤه
 القبة الزرقاء ... نفس قوية لا ينفذ إليها من خلال

الجسم برد الجليد ولا وهج الشمس ، ولا تعثرها
رعة ولا يصرعها داء... وهذه التكايا والأديرة ملجأ
الهادى الهانىء عندما تخور منه قوة البدن أو يحتاج
إلى التجديد ، كما يشمر الأفموان المقدس بالحاجة إلى
تغيير جلده فيسأخ عنه القديم ليحظى بثوب مرقط
جديد . ولكن هذا البدن كان يلج عليه أحياناً
إلحاحاً شديداً ، ويغريه إغراء مزعجاً ، فلا يملك أن
يحرمه ، فإن حرمة أحسّ بوخز الابرّة ، فلا بد له
من الخمر السكر ، والغيب المخدر . . ليفيق ، أى نعم
ليفيق فهو فى نشوة دائمة ، لا تقاومها نفسه الهائمة .
وبعد الافاقة أو السكر لا بد له من نعومة الأبدان
المطرّة ، وليس أجسام الإناث ذات الطراوة
والخصوبة الفاتنة ، والمبت بالأيدي الرخصة .
فتلك الجسوم اللينة المثنية التى يعالجهما من مَسّ
الجن لا بد أن تدفع له الثمن ، وما ثمن الشفاء إلا
الاستمتاع ومشاركته فى اللذة الطارئة والقبلة
المارضة . هذا هو الاتصال المقدس ، مظهر الحب
الأعلى ، إفراغ الحقيقة فى قوالب الخيال ، فإن لم تكن
تلك التى تلمس العلاج تجود بنفسها ، فإليه من يلقاها
فى الطريق عرضاً ، فى سواد الليل أوفى نور النهار .
راعية أغنام ، أو طاهية طعام ، غنية ، أو معدمة ، طاهرة
أو داعر ، كاهن صالحات لبرء القديس من ألم الرغبة
المحرقة . خمس سنوات ، وسبع سموات ، وألف دير ،
ومئات النساء قضاها وطرقها وطاف بها وأظلمته
سقوقها وذاق حلاوتها ومرارتها ، وعشرات المرشدين
والرفاق والمؤمنين تلقى عليهم وتلقوا عليه . وفى

جبل آتوس ديانا ، أثمرت عليه الحقيقة المطلقة
حقيقة العالم المحكوم بالخير والشر ، ولكنها فى نظر
الحاكم الأعلى شىء واحد ، لا فرق بينهما ، لأنه
هو الذى أرادها وخلقهما وألهمهما ، فهما حقيقتان
مطلقتان فى نظر المبيد ، ونسبيتان فى نظر السيد
الأعظم — فلا خير بلا شر ، ولا شر بلا خير ،
كما أنه لا ليل بلا نهار ولا نهار بلا ليل ، ولا نور
بغير ظلام ، ولا ظلام بغير نور ، ولا نار بغير رماد ،
ولا رماد بغير نار ... هذه هى الحقيقة التى توهم أنها
أورحيت إليه ، وعليه أن يذشرها ويذشر بها
ويباشرها . إن الله معه ، حاضر يراه ويسمعه ، يحببه
إذا سلى ، ويحقق آماله إذا اتجه إليه . أليس عبده
الطبيع ومخلوقه الخاضع ؟ وما هو ذا قد خرج من
الخلوة ، ونفض ثياب التحنث فى الكهوف وصدر
إليه الأمر بالظهور ، فعاد إلى قريته (تشاركو سيلو
فلاخش) فخرجت على بكرة أبها تحببه وتستقبله
وتحتفل به ، وهو ابنها البار الذى طاف العالم بأمر
الله وتعلم وتلقن وتأهل واستعد . وكان رئيس الكهنة
(كونيكتوفيلار) على رأس المواب التى أخذت
بيده وأحاطته بالكرامة والبر ، وقد وضع على رأسه
أرصوصة ^(١) محلاة بالذهب والجوهر وقبض على
عكاز الرياسة الدينية . فلما أقبل القديس احتضنه
الرئيس وسلّمه العكاز ، ووضع الأرصوصة ليرفعها
على رأس الضيف الكريم وخلع رداءه الأزرق

(١) فى الأصل تيارا Tiare أى تاج مقدس يلبسه رؤساء
الدين وهو مستدير منقوش فاخترنا له « أرصوصة »

لنقومهم سريان السم في الأبدان . فلم يجدوا علماً يرجعون إليه ، ولا عقلاً يلجأون إلى أحكامه ، ولا علماً يلتفتون حوله ، ولكنهم يشعرون بالخطر ويشمون رائحة النهاية التي تدنو منهم شيئاً فشيئاً .. أويذنون منها . لقد أحسوا أنهم في آخر سهار لتلك العظيمة والحمد والدولة التي آن زوالها واندثارها . هذا الشهور بآخر النهار عندما يعيل ميزان الشمس ، وتختفي الأشعة الأخيرة ، هذه القيامة توشك أن تقوم على دولتهم وتفاجئهم بالويل والثبور وعظائم المهالكات فكان النبلاء والوزراء يلجأون إلى المنجمين والمشعوذين ، ويتبركون برجال الدين ويتحسكون بمجدران المياكل ، ويتذرون النذور ، ويلتفتون البشرية من أفواه المخرفين والدجالين ، فالشر مر تقب والخير منيب ، والشهوات متحكمة ، والملك فيدور الثالث مضمحل الارادة منحل القوى وهو أكثر رعباً من المستقبل الغامض ، ومن الحاضر المظلم من أضعف صانع أو عامل في دولته . وكانت الملكة (كلارپوتانا) قد أصابها داء الهيستيريا لحرمانها من ذكورة زوجها حرماناً مبكراً ، فانقطعت سلسلة نسلها ، وذوى عود شبابها ، وجف ماء حياتها ، ولم تكن نظم البلاط لتسمح لها بأن تتخذ من الجنود أو الضباط عشيقاً ماجوراً مأموراً كما كانت تفعل جدتها كريستيانا أو حماها بيلادونا . فلما أن سمعت بالولي الجديد استدعته بحجة علاجها من أدوائها مظهر منها وما بطن . فلما استأذن عليها بأمر رجلها الفاقد رجولته ، بهرها منظره واستولى عليها

لزين به منكبيه ، ولكن القديس ركع وصلى ، واستغفر واعتذر . فقال له رئيس الكهان المعظم « لم تمد هذه القرية بصالحه لاقامتك ، فلا بد من سفرك فوراً إلى جولد نفاجوس عاصمة ماسكتا ، ومقر عرش مولانا فيدور الثالث ملك ديزفيدانيا ، فكانك هناك بجوار العرش ، ومجلسك عن يمين الملك ؟ فهو أحوج ما يكون إلى قوة روحك ، وبركتك » قبل هذا القول بمسمع ومرأى من عجائز القرية وأبكارها شبها وشبانها . وهذا أقصى ما يطمع فيه « رجل الدنيا » من مجد ... ليت عجائز قريتي يرينني أهل كان السكاهن الأكبر مازحاً ما كراً ، أو صادقاً مخلصاً مؤمناً بما وصف به مواطنه ؟ هل أراد أن يهدي إلى الملك نصوحاً ومميناً أم يتخلص من مزاحم خبيث لا تؤمن عاقبة أطماعه وطموحه ؟ ... ولما وصل نواركوتو إلى العاصمة كانت الأمة خارجة منذ عهد قريب من حرب التوكسمانيين الطاحنة ، ولم توشك أن تنفض عن أكتافها غبار الهزيمة الفاضحة . وكان رأى البورجوازيين من أهل (جولد نفاجوس) على أشد حال من الاستياء والتذمر بعد الخسارة التكرار التي أصابتهم في شرفهم وعزة أوطانهم . وكان النبلاء يشعرون بأن قوائم العرش قد ترعرت ، وأركان السلطان المطلق قد تصدعت ؛ ولكنها لم تنقوض فتشبثوا بالبقية الباقية منها ، معتقدين أن في استمساكهم بها منفعة لهم ولداريهم ، فقد أمسوا أرقاء الشهوات والترف ، وسرى الفساد في

الفرع والطرب في آن ، فهما هذان عملاقا بين الرجال
ضخم الوجه والأنف ، عريض الجبين والنكبين ،
واسع العينين والغم ، خشن الأكف والأقدام ،
رث الهيئة ، ولكنه يبدو كالملوك في عظمة فطرية
لا يكسبها المجد الدنيوي ولا تحملها مظاهر الثراء
الملاذ .

إنها بلاريب شخصية جذابة فائقة ، تخضع
لها الأنتى قبل أن تخضع الملكة . تخضعت الاثنان
مما : الملكة الدليلة بحرمانها ، والأنتى المتعطشة
بحاجة بدنها ... ومرعان ما وقعت المرأة المتعطشة
صريمة لسلطان هذا الفلوك ، فقال : إنها مسكونة
وملبوسة^(١) وأن روحاً شريراً من الجن يحتل كل
عضو من أعضاء بدنها ، وسيطر على كل جراحة من
جوارحها ، فلا بد من سيطرة أقوى من سيطرة
الجن ... !

فقلت : وأين تكون السيطرة التي هي أقوى
من سيطرة الجن يا أبتاه ؟

فضحك الزاهد ضحكة عريضة ساخرة . وقال :
سيطرتي أنا !

نفرت أمامه وقبلت أطراف ثوبه البالية وقالت :
صدقت يا أبتاه !

ومن تلك اللحظة سلمته قيادها — أعنى قياد
بدنها وروحها — وصارت عابدة المخلصة وخادمتة
الطبيعة المؤمنة ، وأعطته مفتاحاً ذهبياً يبيح له الدخول
عليها في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فأبواب

قصرها لا تغلق أمامه ، ومداخل مضجعتها الملصقة
لا سر لها حيله ، ولا يمترضه معترض من الحراس
ولا الوصيفات ... وكانت كلما خضعت لملاجه خلعت
رداء المرض شيئاً فشيئاً وعادتها المافية تدريجاً ،
فزالت صفرة وجهها ، وفارقتها الهيستريا التي كانت
تعذبها وتنخر شبابها وتجفف ماء حياتها ... لقد
كان سرّاً رهيباً ، لم يقو أحد على إذاعته ، ولم يملك
أن يتفوه به ... وكان الملك فيدور الثالث لا يدركه
ولكن الهمس حول رأسه أشبه بطنين الدباب

لقد تمت المعجزة وضحكت الملكة كلاروتونا ضحكا
عالياً ، وزالت غضون جبينها وفارقتها السويداء^(١)
ورحلت عن مزاجها السوداء ، وزالت أعراض
(الليبارجيا) النكراء ، واختفت علة الميلانكوليا التي
أضمت شبيهة الطعام ، وأنهكت قوة أعصابها ،
وامتصت دماء أنوثتها ، وملأت رأسها بالأخيلة في
الصحو ، وبالأحلام المزججة في النوم

وكان الملك فيدور الثالث كلما تمشى البرء في
بدن خلياته دب السقم في أحشائه ، فاصفر لونه ،
ونحل بدنه وهزل كيانه ، وعراء خبال وذهول ،
فكان الذي أسبغ ثوب المافية على المرأة ، سلبها
في رفق وأناة من أوصال الرجل ، فازداد ضعفاً على
ضعف ؛ فأهرعت الدولة نطس الأطباء من كل مكان
وبذلت لهم كل ما فرضوا من مال ونوال ورتب
وألقاب طامعة أن يصيب تشخيصهم وعلاجهم

(١) السويداء uelarcholie . ويقال امرأة سوداوية
المزاج hysteric

(١) في الأصل possédée أى مملوكة لقوة خفية

الملكة في ظلام الليل وخفايا القصر ؟ . وأحيطت
رأس الراهب بهالة من المجد وُبعد الصيت ، وهو
بعد لم ينادر بيته الحقيق في أحياء الفقراء . ولكن
النساء الذيلات ، وزوجات المظالم كن يترايمن على
أقدامه ويقبلن إخصه وكعبه ، ويتشبثن بركبتيه ،
قبيل العلاج . وكان العلاج معلوما ، لا بد منه ولا غنى
عنه . . . لا بد لكل امرأة أن تخضع ، وكن يخضعن
مسرورات ، ألم تخضع أول سيدة في البلاد فغازت
بالصحة والحياة بعد اليأس من النجاة ؟ وعاد طنين
القباب رنيناً في آذان الملك ، فكان يستدرج الوشاة
حتى يمتروا له وينقلوا اليه كل ما يشاع ويعلا
الأسماع ، فيأمر بسجنهم وتجريدهم من أموالهم ،
ويضيفها إلى طبيبه وجيبه وشافيه ومعافيه ومنجده
ومنقذه ، ويقول لنفسه : الحسد والبغضاء والنيرة
السوداء ، إن صح ما يزعمون عن الملكة — وهو
باطل وإفك وكذب منكر — فكيف يفسرون
علاجى وشفائى ؟ هل كان يعشقى أنا أيضاً ؟ لقد
أصاب إذ طلب إلى ألا أصدق الوشاة ، وهذه
كرامة أخرى ! فقد تنبأ بنحبت أهل البلاط فأحكم
الحماية من شرهم بطلب النذر منى فأمنته ووفيت معه .
كان نوار كوتو أخا أورجيات ^(١) ، لا يرحم . ولم
تكن أنثى واحدة بكافية ، بل إناث متعدداً ،
وليست قنينة واحدة بشافية ، بل قناني ودنان غنومات
مفهمات . وليست راقصة واحدة بقاضية أمنية

محبة الصواب ، فكانوا إذا أقبلوا على سريرهم ورأوا
نحوه وتحول لونه ، وجسوا نبضه ، وسمعوا دقات
قلبه ، وخصوا دمه ، هزوا رؤوسهم بأساً وقالوا :
« إننا لنفرغ أقصى الجهد ! »

فدخل عليه الزاهد الرهيب يوماً في غفلة منهم
ومسح جبينه بكفه وقال له : « إن شفيت تنذر لى
يامولاي نذراً » . قال : « نعم يا أبتاه ! فما هو ؟ » .
قال : « ألا تمير أذنك لوشاية واشر ، ولا تصدق
في حق عذل عاذل »

قال الملك وهو يكاد يجود بأنفاسه : « لك ذلك
يا أبتاه ! »

فركع الزاهد بجوار السرير ودفن وجهه في
لغائفه وأمن في صلاة حارة ، ولما نهض من صلاته كان
وجهه الأسمر الداكن وشعره الأسود الفاحم مبللين
بالدموع ، وأخذ يمسد الكرة اليوم بعد اليوم ،
وأخذت صحة الملك بعد قليل في التحسن ، وعادته
القدرة على الطعام والعمود والوقوف — حتى المشى
على الأقدام . . .

فشاع في أنحاء الملكة المنكوبة أن صلاة
(نوار كوتو) قد أنقذت الملك ، بعد أن أنقذت
الملكة ، فاكفهرت وجوه الذين تحدثوا بالسوء من
قبل ونسبوا شفاء الملكة إلى علاج سفلى ، أو طريقة
شهوانية وخطة شيطانية جعلت الحياة تدب في
جسم المرأة المحرومة ، التي كانت عليلة بالحرمان .
وقال أنصار الراهب : هل كان بينه وبين الملك فيدور
الثالث غرام واتصال كالذي زعمتم وجوده بينه وبين

(١) أورجيا حفلة تهتك وإباحة كانت لليونان والرومان
وبعض الشرقيين . وكتبها العرب هكذا .

زوجته (البلكايا تتدريس) قد فرت من القصر ، فوجدت في حال بين السكر والموت ، عارية البدن وموخوذة بأسنان مدية قاطعة في زورق شراعى ضال في عباب نهر شانطور الذى يمر بالعاصمة وقد اعتدى عليها بعد أن عذبت . ولكنها كانت في كل الأحوال راضية . فنقل البيلكو حليلته إلى القصر والتجأ إلى الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) زعيم الخفية ورئيس الشرطة السرية ودفع له ألف فلورين ذهباً ووعدته بمنزلها إن هو أظهر له الجاني الذى استباح عرشه وهتك أستار شرفه ، وجمع بين الفجور والقسوة ... فاستوثق الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) من البيلكو سومان ألا يبادر إلى الانتقام ، وألا يبوح باسمه إذا سئل عنه في التحقيق ، فوعده بذلك فقال له : « إنه نوار كوتو الذى دأب على استغلال سيطرته على عاشقائه وأنه منح أجملهن لقب الأخت المختارة وكان يوعز إليهن أن يعصين أزواجهن ، فإن الأزواج رجال ضرورة جمعت بينهم وبينهن دواعي المال أو الحسب ، أو الخوف من هيبة الدين والأهل ، وهذه كلها ترهات ، أما المحبوب القاهر فهو الزوج الصادق الخفى والعاشق القابض على زمام الإرادة عن طريق الجسم والعقل » وصمت (الكولونيل أنفور ماتورى تشايف) ووضع سبابته على فمه علامة الأمر لمحدثه بالصمت

وقد أيقن البيلكو سومان أن نوار كوتو أصبح صاحب الحول والطول داخل القصر وخارجه وذا الكلمة التى لا تمصى ولا ترد ، وأن أذننى الملك فيدور الثالث مقفلتان دون كل وشاية ، لأنه مدين له بحياته وحياة زوجة الملكة ، فزاد ذلك من حقه البيلكو سومان الذى أهين شرفه ، وأهريق

النفس بل راقصات ومطربات . . ألم يعلم أن في هياكل الهند ومعابد المكسيك نساء عاريات اسمهن عرائس الآلهة المبدولات للكهنة ، وأحياناً لكل طارق وعابد . . . وهذه النسوة المعششات حول كوخه ، المحاصرات لمسكنه من الفجر إلى نصف الليل ، المرتعيات على أقدامه ، أليس فيهن صالحات لأداء تلك الوظيفة ، وهي عبادة « الاطمئنان » ؟ إن قوة الرجولة فيه نادرة المثال قادرة على إخضاع نصف نساء الملكة والقضاء على أوجاعهن المؤكدة . وقدرة الذكورة السكمنة وراء سواد عينه ، وسواد شعره ، وضخامة أعضائه كغيلة باخراج الجن من أبدان الكاهنات مهما كان الجنى الساكن عنيداً ، فتارت عواطف التبيلات المهجورات وغلت دماء الشباب في عروق المرائس اللواتى كن زينة القصور وحلية المجتمع ، ولكنهن زوجات لأزواج لا يزيدون على التحية والاحترام وتقبيل الأيدي في المجالس والأهباء ، أما هصر تلك القدود ، والتمتع بورد الحدود ، والناجاة في المضاجع فكانت خارجة عن نطاق جهودهم وشاهدة بمنجز نخوتهم عن أجدادهم لأنهم أسرفوا في فتوتهم فلم يدخروا لرجولتهم ، وقد أشعلوا الشمعة حتى آخرها ، فلم يمد في عودها شحم يغذيها أو تستمد منه أشعتها ولذا هجروا المقائل في القصور ، كالحظيات في الماقل ، فكان (نوار كوتو) كعبة آمالهن ومحراب عبادتهن حتى الراهبات في الأديرة هجرن المذايح والمضاجع وحلن بيوت الزاهد يلتمسن الرحمة الرحمة يا أبتاه ولم يكن للرحمة التى جرى اسمها على ألسنتهن سوى معنى واحد

وفى أحد الأيام علم البيلكو (١) سومان أن

(١) ثقب شرف مثل كوت ولورد ومؤته بيلكيا كما يقال كوت وكوتنه

فريسته للوهلة الأولى ، فلما أراد صنع الكرامة كفت الزوجة بأمره عن تسميم زوجها ، فعاودته الصحة ... ولكن الحادثة إذا صيغت للملك في أبلغ قالب وأزهى سورة وأصدق رواية لا يصدق قائلها ولا يؤمن به ، بل يرميه بكل سوء ، ولا يعفيه من عقاب . وكان لنوار كوتو خادم مخلص اسمه (يانكو) وصريد وفي يدعى لييوس ، فاستدرجها البيلكو سومان بالمال والنساء تنفيذاً لخطة وضعتها رئيسة الدير الموتورة التي كانت معشوقة الراهب ، وبذل لها البيلكو النصار وقدمت لها ربة الدير ما شاءا من راهبات وسقتهما ماروي غاتهما من نخر ، حتى أفضيا لها بأن الراهب سوف يكون منفرداً في بيت خلوي وفاء لموعد غرام جديد ، وسوف توافيه إحدى النبيلات المشتعلات بالشوق إلى قربه لتحقيق أحلام الهوى التي يحلم بها نساء كثيرات من طبقتهما بعد أن أقض هجر الرجال مضاجعن ؛ وأن هذه النبيلة تخشى مفاجأة زوجها أو أحد أقاربها فتسلحت بالرصاص والسهم وأسباب أخرى للملاك ، قد توردها موارد التلف إن تنسدت ربح الفضيحة ، وأن هذه الحسنة الخجول الحذرة وتدعى (كوتشنا) لا تلبث أن تصل إلى الدار لتجوس خلالها وتعرف مخابئها ، حتى إذا بلغت يوم اللقاء كانت آمنة مواطن الفزع من رقبائها . وأن اليقين قاطع بوجهها وأنها فريسة لخاوف مزعومة . وإذن ما أسهل أن يكن واحد أو اثنان من عداة الكاهن ... ثم استمرت الكاهنة الموتورة في وضع خطة محكمة جمعت مصرع الكاهن الملتهب من فعل عشيقته الملتهبة أمراً ميسوراً

وفي اليوم المحدد لزيارة النبيلة زيارة كشف واستطلاع ، انقلت إلى الدار ثلاثة من النبلاء الموتورين في أعراضهم وقد تأبطوا حقيبة ضخمة

كرامته ، وديست عاطفة الزوجية منه بالأقدام ، ولكنه أضمر الانتقام وصمم على النار ، وكان طوال أيامه بمالج زوجته وينعمها ويطمئنها ويستدرجها لتعترف له ، وهو يسجل اعترافها ويخفي وراء الأستار شهود سماع يسطرون أقوالها في ثبت رسمي فمرف الكثير من أمرار الرجل ، وأن امرأتين تبغضانه وتربصان به الدوائر (ستارهزنا) رئيسة دير (يواركان) وهي في أول أمرها نبيلة وقعت فريسة لشهوته وغدره ولم تنل من حبه مآربها ، إذ كانت تمنى أن تستأثر به ، فهي قد وقفت أموال الدير ، وهي طائلة ، على الانتقام منه . ثم البارونة بيلادونا عقيلة الوزير (بيلهاين) وقد كان سبباً في إسقاط بعلها وإقصائه عن دست الوزارة ثم هجرها ، وما زالت تهوى في حلزون الشقاء والانحطاط حتى صارت تعرض التسري بها على من يشاء لقاء أجر معلوم ، ولكنها مع ما حل بها من الضياع والهدار الحرمة لم تنس ثأرها . فحذثته نفسه أن انتصاره على خصمه قرين مخالفة هاتين المرأتين ، إذ لا أمل في الانتقام من رجل مهما علا أو هبط بغير معاونة النساء فأنهن مخالب الشيطان ورأس الأفعى وأداة الشر . فسعى البيلكو سومان الزوج الموتور إليهما وعقد بينهما وبينه أواصر المودة وأفضى إليهما حتى أمتنا جانبه ، وكانتا تحسبانه في أول الأمر عبناً عليهما أو أذنًا لنوار كوتو أو مولاته الملسكة ، فأخذها إلى قصره وأدخلهما على قريبته ، وأسمعهما من فمها قصة ألمها وعارها ، فأطامته من أمر الكاهن الزائف على ما لم يعلمه أحد ، فعلم أن السر في شفاء الملك الخدوع أن الراهب إذ كان يتظاهر بعلاج الملكة ، كانت تدمس زوجها السم بأمره ، جرعات معلومة مقدرة ، من زعاف نباتي لا يترك في الأحشاء أثراً ، ولا يقتل

ممشوقته التي كاد يذهب ضحيتها كما ذهبت ضحيته . وكانت مواطن الرصاص من جسمه تسيل دما ، ولكنه كان يقاوم عوامل الموت بدوافع حيويته ؛ ويزأر حيناً كالضبع الجريح وطورا يفنم غنمة مبهمه فأهوى عليه الثلاثة الدخلاء بخناجرهم وهو يجار ويخور كالثور الكبير والفحل النابغ وينهض ثم يقع متخبطا في دمه ، حتى نزع معظم ما في عروقه وكان دما أسود قائما كدم الجن . فلما أيقن الثلاثة بموته رفعوا لحام المستعارة ، ونزعوا ثيابهم التي جعلتهم في صورة أقارب النبيلة حتى توهمت أنها قد فضحت حقا وأن أباه وأخوها وقفوا على سيرها فأقدمت على القتل والانتحار في حين أن خصوم الكاهن لم يزدوا على أن قلدوا تصاوير أقاربها ، وانتحلوها ليحلوا محلهم لحظة تفقد فيها النبيلة رشدها بالرعب ، فتنحدر أو تقتل الراهب المزيف خطأ . وقد نفذت تلك الخطة المحكمة كما رسمها رئيسة الدير .

فلما تم لهم ما أرادوا غادروا المكان وتخلوا عن الحقيقة وأذاعوا في العاصمة نبأ مصرع شيطان الانس حتى علت به الملكة والملك . فانتحرت (كلاريوتانا) وحن فيدور الثالث وثار الشعب على النبلاء الكهنوت ووضع الفلاحون والصناع أيديهم الطامعة على كنوز ديزفيدانيا فانهز الدريفاديون والتوكسمانيون فرصة خلو العرش واضطراب الأمن وزوال العدل فاحتلوا أرض الوطن . . . وأقاموا لنوار كوتو تمثالا وللنبيلة كوتشأتو نصبا من المرمر لأن فسوق الأول وخشية الثانية من العار كانا سببا في امتلاك وطن ديزفيدانيا وزوال دولتهم . محمد لطفي جمعة

أودعوها قوتا وأسلحة وحوائح أخرى ، فلما فتح الباب ودخلت البارونة (كوتشتا) صبروا حتى غاب سوادها في ظلال الأشجار الوارفة وانسلوا بحذق كأنهم ينفذون مكيده حرب في مواقع الدرافيديين أو التوكسمانيين جيرانهم وأعدائهم من قديم الزمان ولم توشك المسكينة أن خرجت ، وقد اطمانت وهي لا تدري ما تحبثه لها الأقدار والأحقاد . ولم يطل على القابعين الانتظار فقد وافى في اليوم التالي الراهب متزيئا في زي أعيان الريف وجاء بعده أحد الخادمين يحمل ما يحتاج إليه مجاس الشراب ومخدع الهوى ثم انصرف الخادم وبقي الراهب في الانتظار . وبعد الغروب جاءت النبيلة في ثوب ريفية شطاء مبالغه في التخفي وغلقت الأبواب ، وجلست إلى الراهب في استعداد لقطف أحلى ثمار الهوى ، وهي تمني نفسها بتلقى صدمة الغرام العنيف^(١) ، تلك الصدمة الأولى التي تشفيها من كل داء

ولم يوشك أن يشرفا من نافذة النشوة على بستان الحب الفسيح ، حتى سمعا دقا على ثلاثة أبواب في وقت واحد ، وقبل أن يسترد الماشقان المأخوذان روعتهما ، دخل ثلاثة من أقارب النبيلة : زوجها وأخواها . . . فحن جنونها ونهضت وأخرجت سلاحها فوقف الراهب بينها وبين أهلها فأطلقت الرصاص عليه في لحظة جنون وفزع ثم أدنت من فمها خائفا أنيقا كانت جعلت فمه مخزنا لسم قاتل ، فلم توشك أن مصته بشفتيها حتى سقطت صريمة . . . وانكفأ الراهب عليها ينعمشها بطريقته غير حافل بمحضر الرجال الثلاثة ، في سبيل إنقاذ

(١) في الأصل "shock" d'amour premier لم ندر المقصود بها ولا سيما وإن إحدى الكلمات الإنجليزية